وفاء موفق

الميزان

قصة رمزية

الدار الإسلامية للإعلام

الفهرست

المقدمة ٧
التحقيق ١٣
العدل ٢١
الزمن ٣٥
العلم ٤١
المثالية ٥٥
مدينة الروابي ٦٣

الإهداء

إلى

﴿الذينَ قالَ لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمعوا لكُم
فاخشَوهُمْ
فَزادهم إيماناً
وقالوا حَسبُنا اللّه ونعمَ الوكيل﴾

إلى الذين رفعوا راية الحق عالية رغم المخاطر

إلى الذين أخلصو لمبادئهم وضحوا في سبيلها

إلى هؤلاء جميعا..

وإلى أخي ...

المقدمة

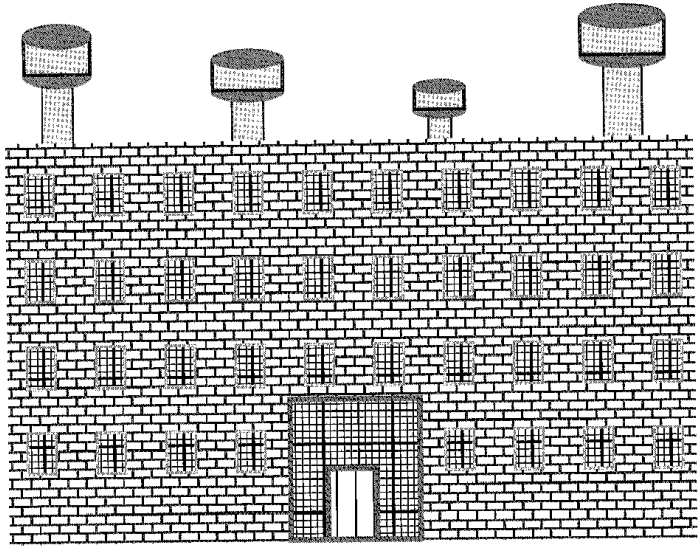

من قال يوماً أنه ينجب ؟

ومن قال يوماً أنه يحمل كما تحمل النساء وتلد في كل زمان ومكان ؟ وأحسّ بآلام المخاض تعتصر جسده الذابل المنهك وهو يتوجه نحو بوابة الخروج لطالما تساءل عن الرحلة التي أتت به من العدم إلى الوجود وجعلت منه إنساناً يذكر بين الأحياء.

واليوم وبعد أن اشتعل رأسه شيباً تتجدد معالم هذه الرحلة فيه ثانية ، على مرأى ومسمع منه هو نفسه.

لم يصدق وهو يضع رجله اليمنى خارج المبنى القديم الأسود الذي احتواه لسنوات طوال ، وكأنه حيطان صَدَفَةٍ خُبِئت في قاع المحيطات السحيقة. وتساءل باستغراب :

هل عاد عيسى إلى الحياة يجدد معجزاته ؟ أم لبس العدل مسوح الحق فكان من أمر بعثه ما كان!

انطلقت نسائم الهواء الحر ولامست ما بقي له من وجنات على وجهه الشاحب فأحسّ بالانتعاش يسري في عروقه المكدودة الراكدة ركود الماء في مستنقع مهجور .

ولأول مرة ومنذ خمسة عشر عاماً يرفع رأسه إلى الأعلى فيرى السماء الممتدة بين اللابداية واللانهاية، فهتف قائلاً وهو يجيل النظر فيها:

ما أوسع العالم!.. فافتَرَّ ثغر السماء عن إشراقة الشمس فأسبغت على نفسه المرهقة السعادة، وأحسَّ بالحياة تستقبله من جديد بابتسامة كونية مملوءة بالحيوية سرعان ما تلاشت برؤية حارس السجن مرة أخرى قائلاً له بغلظة:

والآن عليك بمغادرة السجن فوراً، لا نريد أن نرى وجهك فيه ثانية.

التزم نور الصمت وأسرع بالمشي، وما أن غادر الباب الخارجي للسجن حتى فوجئ برؤية أخيه واقفاً لاستقباله بقلق شديد.

لقد تردد في بادئ الأمر في الركوض نحوه بسبب عبث ريشة الزمن بوجهه وشعره. ولكن ما أن ناداه نور!.. حتى انطلق كلاهما نحو الآخر هاتفين بصوت واحد:

شيء لا يصدق!!

وتعانقا بعد فراق مرير، واستيقن سامي أن أخاه قد خرج حقاً من السجن، لا وهماً وظناً وإشاعات تتردد في كل مرة.

وأحسَّ بعد هذا العناق الأخوي الحزين أنه من الأفضل أن لا يطيل المكث في هذا المكان الموحش، فترك أخاه برفق قائلا:

هيّا نذهب من هذا المكان النائي، ثم ركبا السيارة، وانبرى سامي يسابق سرعة الضوء بصحبة أخيه فيها.

قال نور متلهفاً: إلى أين؟

أجاب سامي وهو ينظر إلى وجه أخيه المجهد: لا تسألني لقد رتبت لك كل شيء.

قال نور: سامحك الله قل لي إلى أين؟

أجاب سامي وهو يقود السيارة بسرعة هائلة : إلى المطار .. إلى المطار .

أحسّ نور بسرعة السيارة الكبيرة فقال لأخيه :

تمهل لئلا تصطدم بالسيارات الأخر .

قال سامي : هدّئ من روعك يا أخي ، هذه السرعة لأجلك . علينا أن نصل قبل موعد انطلاق الطائرة .

نور : تقصد أننا لسنا ذاهبين إلى المنزل ؟

سامي : ما قلته صحيح ، لا نستطيع الذهاب إلى المنزل ، لأن المسؤول عن إخراجك نصحنا أن لا تبقى ولا لحظة واحدة و إلا أعادوك إليه مرة أخرى .

نور : يا اللّه لقد أصبحت سجيناً في شكل آخر! هل قدر لي أن أكون سجين إرادة هؤلاء الظَلَام مدى حياتي .

سامي : ومن قال أنك تحررت من السجن ؟ لقد خرجت من الزنزانة إلى السجن الكبير الذي يحوي أهل هذه البلدة كلها . نعم كلها .

ليس لدي الوقت الكافي لأشرح لك كل شيء فقد وصلنا إلى المطار ، ثم فتح باب السيارة وقال لأخيه هيّا كل شيء جاهز . هذه متاعك ، وهذا جواز سفرك . وأخرج من قميصه ظرفاً وقال لنور هذه رسالة شرحت لك فيها كل شيء ، وسأوافيك بالمزيد بعد مغادرتك مباشرة . الإنطلاق بعد ربع ساعة .

ستكون بعدها في مدينة الروابي وسيكون في انتظارك صديق لي قديم وهو مستعد لتقديم أي مساعدة لك .

قال نور : ولكن ألا يمكن الذهاب إلى البيت ولو لفترة بسيطة بعد غياب هذه السنوات الطويلة القاسية ؟

أريد أن أرى أمي و إخوتي أرجوك يا أخي .

تنهد سامي بعمق وقال بنبرة مشوبة بالأسى :

لقد قررنا لك لا لزهدنا فيك ، فأنت بضـعة منا .

يا إلهي ليس لدي الوقت الكافي لإخبارك بكل شيء ، ولكن أؤكد لك أن الأسرة ستكون كلها في غاية السعادة إذا علموا أنك غادرت البلاد ، وسيسافرون للقائك في أقرب فرصة ممكنة إن شاء اللّه .

وكاد سامي أن ينفجر باكياً لروية حال أخيه وقد هزل جسمه ، وعلى وجهه بقايا رضوض ، مبيض الشعر ، لقد بدا أكبر من عمره بسنوات كثيرة ، وكاد يصرخ بأعلى صوته على باب السجن أيها الظلمة القابعون في جحوركم ماذا فعلتم به ؟ غير أنه تمالك نفسه بشجاعة لم يعهد لها مثيلاً ، وحاول قدر طاقته أن يسيطر على ملامح الحزن التي تصارعت في داخله وحاولت الخروج بعناد لتبدي ملامح وجهه الحقيقي ، ثم اقترب منه وتعانقا وداعاً عند بوابة الإنطلاق ، ولم تستطع سرعة الأحداث حبس دمعات سخيات في مآقيهما .

وانطلق نور إلى مكان الطائرة وهو يتمتم : يا لها من حقيقة لا تصدق في ثوب كابوس مزعج .

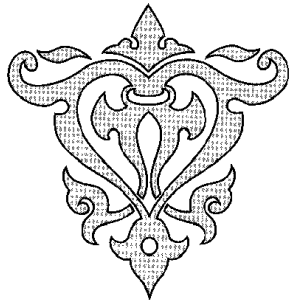

التحقيق

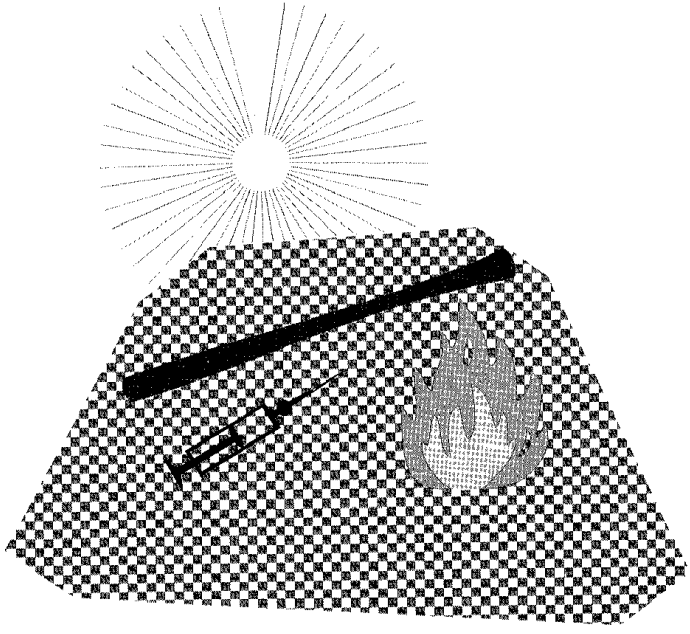

متهم نعم إنّك متّهم.

أهكذا وبكل سهولة ودون محام أقف وحيداً غريباً بين أبناء جلدتي ويصدر حكم قاطع يتيم باتهامي. **قالها نور بأسى.**

فانبرى المحقق يتابع كلامه بغلظة: إيّاك أن تنبس بكلمة وإلاّ كان التراب البارد مهدك وغطاءك هذه الليلة.

فقال نور باستغراب: يا حضرة المحقق لقد اتهمتني بأنني محرّض للشعب و... وقبل أن يتمّ كلامه **انفجر المحقق في وجهه قائلا:**

قلت لك اسكت ولا تنبس بكلمة واحدة دون إذني وإلاّ كنت وجبة عشاء فاخرة لدود المقبرة... وبالمناسبة المقبرة ليست بعيدة عنّا.

لم يأبه نور لتهديد المحقق. وتابع كلامه قائلاً بهدوء:

كل الذي فعلته أنكم سألتموني عن رأيي وقلت الصدق.

فقاطعه المحقق مرة أخرى وقال: أيها الكذّاب، ألا تعلم أن الصدق غير الذي قلت ؟!

فقال نور : وماذا كان عليّ أن أقول جواباً عن الاستفتاء الذي قمتم به ؟!

فقال المحقق : يا لك من أبله حقاً لا تقدّر النعم التي تحيط بك. ملك عظيم يخدم شعبه كل هذه السنوات مُلئ خبرة لشعبه وتعب لأجلهم وتُسأل عن رأيك فيه. فتقول : ينقصه العدل. وبكل جرأة وأمام المئات. من أنت حتى تتفوّه بتلك العبارة يا صغير ؟!. ألا تعلم بأننا قادرون على سحق أمثالك ؟!. إنكم معشر الشعب غُثاء، ومهما بلغتم من العلم فإنكم لن تصلوا ولن تجاوروا قدر الملك العظيم.

حقاً إنّك محرّض للناس خطير!!.

نور : ولكن يا حضرة المحقق لم أقصد سوى الإصلاح والتذكير!!

فعاد المحقق يتبجح ويقول : أو لم يكن لديك جوابٌ يناسب قدسية الملك ؟!.

فقال نور بنفاذ صبر : إني لم أستطع أن أقول الكذب.

نظر المحقق بازدراء إلى نور وقال وهو يُقهقه :

يا لك من فيلسوف مضحك ومن أين لك هذا ؟

قال نور : إنّها تعاليم هذه البلاد وشعاراته نهلنا منها مذ غمرتنا هذه المبادئ.

فاستشاط المحقق غضباً وقال بأعلى صوته :

أتستهزئ بهيبة إدارة هذه البلاد أيها الصابئ.

فأجاب نور بنبرة يشوبها شيء من الغضب : دعني وشأني إني لم أقترف ذنباً استحق عليه هذا الاستجواب الظالم.

فهجم عليه المحقق كالوحش الهائج وأمسك بتلابيبه صارخاً : لم يعد لديك المقدرة على تقرير مصيرك مفهوم أيها المجرم.

فأمسك نور بيدي المحقق محاولاً نزعها بصعوبة من ملابسه وقال بصوت فيه قوة أرعبت المحقق : انزع يديك عن ثيابي، أنا لست مجرماً كما تدعي.

فتراجع المحقق وهو يبتلع ما تبقّى لديه من كلمات نابية في قاموس ذاكرته متظاهراً برباطة الجأش، وأشار إلى الحرّاس قائلاً: ألقوه في زنزانة التعذيب لكي يتعلم أدب الكلام ولمن يكون الاعتراض.

فانقضّ عليه السجانان وأمسكا بيديهما الغليظتين كتفيه وساعديه، وأمراه بالسير معهما.

وعادالمحقق يُردّدُ قولته بصوت أعلى: ألقوه في زنزانة التعذيب لكي يتعلم أدب الكلام ولمن يكون الاعتراض.

وعاد صوت المحقق كرّة أخرى يجلجل في أرجاء الغرفة ويزداد علوّاً: ألقوه في زنزانة التعذيب لكي يتعلم أدب الكلام ولمن يكون الاعتراض.

فازدادت قبضة السجانين إحكاماً على جسده المرهق.

عفواً يا سيد هل أنت متضايق من شيء ؟! **هتف مضيف الطائرة واضعاً يده برفق على كتف نور.**

لا لا، وفتح نور عينيه مذعوراً وتنهد بعمق وأعاد وضع جلسته على كرسي الطائرة وهو يتمتم: أه لقد استمال رأسي لشريط فيديو سُجلت عليه هذه الأحداث. يارب، إنها تلاحقني في أحلام نومي ويقظتي.

يا إلهي لقد حفرت في ثنايا تفكيري. هل أستطيع أن أنساها ؟. إني أشك في ذلك.

واختلط صوت هدير الطائرة المدوّي بلغط الناس، فاخترقت مسامعه أفواج من عبارات المحقق (متهم متهم... لم يعد لديك المقدرة على تقرير المصير، ألقوه في زنزانة التعذيب ليعرف مع من يتكلم ولمن يكون الاعتراض. ...)

فوضع يديه على أذنيه علّه يمنع تلك الهراءات غير أنه لا جدوى لذلك إن صوت المحقق لا يزال يلعلع في أذنيه من الداخل. فتأوّه بحسرة وقال بصوت منخفض: يا لها من تجربة لا أستطيع أن أضع لها اسماً.

ومدّ يده وتناول صحيفة من حقيبة الكرسي الذي أمامه وبدأ يقلب صفحاتها دون أن يرى أو يدرك محتواها، وكأنما عيناه تحولت لرؤية شريط الفيديو داخل دماغه. أظُلْمَةُ الزنزانة قد أغشت عينيه يا ترى؟ أم التعذيب الوحشي الذي تحمّلهُ وكاد يودي بحياته مرات عديدة؟.

لقد عاش ولمس معجزة الموت والحياة في نفسه وجسده مرات عديدة، من يصدّق؟

وتتابعت سلسلة الخمسة عشر عاماً في زنزانة التعذيب وفي السجن تقتحم أروقة أفكاره وتعيث فيها تشويشاً، وصار يخاطب نفسه مرة أخرى بصوت خافت ويقول:

لقد اتهمت بتحريض الشعب لأجل كلمة صدق قلتها. أنا لم أفعل ذلك أبداً، أنا لست بالخطيب المفوّه الذي يقول فيلهب مشاعر الناس، كل ما في الأمر أنني سُئلت عن رأيي في وضع بلدي فقلته ببساطة وإيجاز: ينقصه العدل.

فإذا به يضخّم ويُكبّر وأُتهم بتهديد أمن الدولة، ويلقى بي في السجن مع المجرمين وقاتلي الناس ومنحرفي الخلق.

ماذا فعلت لأتلقّى التعذيب وأُحرم رؤية أهلي خمسة عشر عاماً بليلها ونهارها. من يصدق؟ بالأمس دخلت مبنى الحكومة موفور الكرامة محبوباً لدى الأهل والأصدقاء وكل الناس واليوم أخرج منه رجلاً موصوما بالجرم والتزوير مسلوب الصحة والمال.

يالهم من خبثاء. إنهم لم يتهموني بالجرم فقط، بل أرغمت على الاقتناع بأني مذنب مجرم. ولما كنت أصر على براءتي كان التعذيب حليفي. أي ارغام نفسي وحشي هذا؟!

لم أرَ في حياتي شيئاً أمضّ من التلفيق. نعم كانوا يحيكون الحوادث ثم اجبر على الاعتراف بها، والويل كل الويل لمن يقول: لا.

لأول مرة في حياتي أشعر أنني أقف في الهواء، لا بل في الفراغ. لا... بل في الفضاء في حالة انعدام وزن. لا أرض أستطيع الوقوف عليها، ولا متكئاً أستند إليه ولا شيء أتمسك به. يا إلهي أي تعذيب هذا؟! وفي أي عصر نحيا؟! وأي عدل هذا؟!

بل لقد محق العدل واختفى، نعم لم يعد له أثر! أين هو؟! لقد حاد الناس عنه فارتحل عن الأرض.

أيها العدل أين أنت؟ لا أصدق أنه وُجد أصلاً على هذه الأرض! ولكن إن لم يكن موجوداً فمن أين أتت هذه الكلمة؟ وماذا تعني؟

أيها العدل! قل لي من أنت!؟ أريد أن أعرف من أنت؟ لابد وأنك إمرأة. هل العدل إمرأة يا ترى؟

لا، إنه ليس إمرأة لقد عرفت أمي ينبوع الحب الثر. وهل يمكن لينبوع الحب الثر أن يكون هو العدل؟ وهل يمكن لمنهل الايثار الفياض أن يهبط لمنزلة العدل؟

وصمت برهة ثم قال: لابد أنه إمرأة. ولكن إمرأة عقيم أجل عقيم عقيم.

قالها وهو يلتفت إلى جانبه بحركة لاشعورية فوجد الرجل الذي يجلس إلى جانبه ينظر إليه متعجباً من ترديده هذه الكلمات، فأحسّ نور بارتباك ونظر إلى المجلة التي بين يديه متظاهراً بقراءتها، وما هي إلا لحظات حتى عادت التساؤلات تتوالى على ذهنه بإلحاح.

أيها العدل من أنت!؟ قل لي من أنت ؟

هل أنت رجل ؟ أجبني ، هل أنت رجل ؟!. وألقى نور برأسه على مسند الكرسي ثم أدار وجهه نحو نافذة الطائرة ، فإذا بوجه المحقق العبوس يطل عليه من خلال الغيوم الرمادية المتكاثفة ، فشعر بالامتعاض وقال: الآن عرفت أنك رجل ولكنك رجل جاهل ومعوّق.

وما أن انتهى من جوابه حتى عادت مطرقة الاستفهام تثير السؤال نفسه ، فانبرى يقول: لا! لا! أيها العدل إنك لا تزال طفلاً! نعم إنك طفل لا يحق الحق ولا يبطل الباطل.

إنك طفل خديج وأغمض عينيه المتعبتين وهو يتمتم: يالها من حقيقة لا تصدق في ثوب كابوس مزعج.

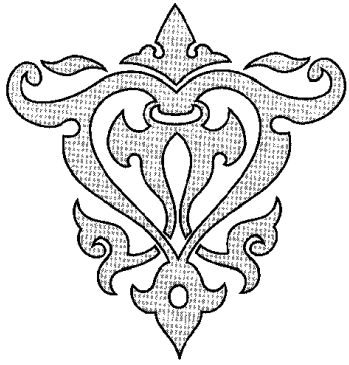

العدل

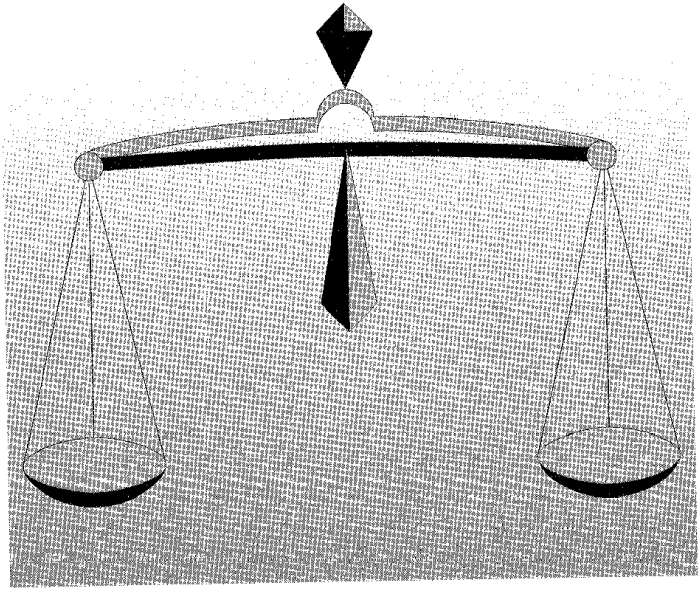

كأنها أمطـار مداريـة أم عواصـف قطبيـة ثلجيـة انهـالت عليـه حين فتح كتابـاً خطـه الزمن منذ خمسـة عشـر عاماً، وبدأ يقلب صفحـاته المنسـوجة من الأشلاء، ويقرأ سطـوره المكتوبـة بالخوف والظلـم والإرهـاب فعصفت به رياح الألم ؟!

وبينما هو يجوب الترحال بين أعاصير الخمسـة عشـر عامـا استرعى انتباهه صـورة شبح حزين يقلب بين يديه كفـة ميزانـه الباهت المكسـور وعلى يمينه قارورة تكاد تكون فارغـة، وبشـق الأنفس يحـاول استخراج ما تبقى فيها ليرمم أداته التي رأت النور معه يوم ولد. ورغم قلة ما فيها يواصـل جهـده بالحصـول على تلك البقايا ليصـلح حال كفته المسكينة. **ولم يتماسك نفسه نور وانبرى قائلاً :**

أما آن لك أن تتخذ دورك في هذه الحياة ؟.

فأجابه الشبح : وكيف أتخذه والحال كما ترى. ؟

فقال نور : لا تبرر تقصيرك لا أريد سماع الاعذار والمسوغات.

أجبني لماذا وُجدت إذاً ؟!

نظر إليه الشيخ بمرارة وقال: لا أستطيع أن أجيبك حتى تتفرس في حالي.

فالتقط نور أنفاسه المتلاحقة من الضيق وتأمل منظره الغائم بتمعن وقال:

ماذا دهاك هل أصابك الدهر بنوائبه فعجزت عن أداء مهمتك؟

أجاب الشيخ: لا لم تفلح يا أخي.

قال نور: عهدتك في طفولتي منصوب القامة موفور النشاط بصحبة ميزان لامع أنيق وطرقت بابك بعد سجني مراراً فرددتني خائباً فافتقدت هويتك والآن لا أرى سوى عجوزٍ يحمل كفة ميزان واحدة وعبثاً يحاول إصلاحها، أيها البائس كيف تقضي ما تبقّى لك من حياة؟!

فوضع الشيخ الكفة المسكينة إلى جانب القارورة، وأمسك رأسه المثقل بالهموم بكلتا يديه وقال:

لقد سُرق الميزان.

قال نور: ومن فعل ذلك؟

أجاب الشيخ: هذا ما سأسرده عليك.

في ليلة ليلاء قمت أتفقد أحوال الخليقة بصحبة ميزاني، فوجدت أن الملوك بحاجة إليه وكعادتي عرضته عليهم فاستلفوه مني وتواروا عن الانظار. عدت إليهم لاسترجاعه غير أنهم لووا رؤوسهم وأنكروه، ومنذ ذلك الحين وأنا أقطع الطرقات وأجوب العالم لعلي أعثر عليه.

ولقد حالفني الحظ مرة فوجدت إحدى شظايا الكفتين بين يدي الرعية يقلبونها بين أيديهم، ناشدتهم أن يعيدوها إليّ. فقالوا: إنها مكسورة ولم يجدوا سبيلاً لإصلاحها.

فقلت: وكيف كان ذلك. **قالوا:** لقد حصلوا عليها بعد أن دفعوا ثمنها كدّاً وتعباً، دماً وجهداً، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا بحوزة من ستكون، وبعد أخذٍ وردٍ قبلوا من ملكهم أن يكون حكماً عدلاً بينهم، **فأقبل مزهواً وقال برعونة:** سلموها إلي. فأذعنوا له راضين فما كان منه سوى أن حملها إلى الاعلى وألقى بها على الأرض بكل ما أوتي من قوة، فتبعثرت قطعاً صغيرة فتهافتوا على شظاياها كل واحد منهم يظن أنها الخلاص والحل المنشود وكان جديراً بهم أن يفكروا كيف يحسنون استعمالها وتداولها بينهم، **ولما ثابوا لرشدهم ندموا على عملهم هذا فوقفوا حيارى متسائلين:** كيف السبيل لإصلاحها والاستفادة منها متعاونين؟. ولما طلبتها منهم حدثوني بما يدور بخلدهم، **فقلت:** دعوني أجمع أكسير إصلاحها منكم، فوضعت فتاتها المتناثر في علوة وطلبت منهم أن ينظروا إليها، وأن يفكر كل واحد منهم بأفضل طريقة لإعادتها كما كانت، ولذت بقارورتي... وطفت بها عليهم لأجمع العرق المتصبب من جباههم.

وبعد برهة من الصمت والتفكير، تقدم رجل عريض المنكبين، كثّ الشاربين، يسير خلف بطنه المترهلة، تبدو عليه علائم استلام السلطة وقال بصوت جهوري وبلا مقدمات: كان عليهم اتباع ما أمليته عليهم، لقد قلت لهم: دعوني أحتفظ بها وسأخرجها لكم عند الحاجة، فلم يسمعوا لي وهذا جزاؤهم، فصفقت له فئة من البسطاء وحيّته ودعت له بطول البقاء.

فانطلق رجل من الجموع غائر العينين والوجنتين هزيل البنية، والشرر يتطاير من عينيه، وقال بسخرية: أنت هه! إننا لا نؤمنك على ميزان لبيع الخضار في السوق، فكيف نؤمنك على ميزان تعدل فيه بين الخلق؟.

فاشتعل ذو الصوت الجهوري غضباً وصرخ بأعلى صوته: اسكت وإلا.. **فقاطعهم العدل:** ليس الآن أوان الشجار، فساد الصمت مرة أخرى، **وبعد دقائق تقدم رجل بخطوات رياضية صحيح البنية ميسور الرشاقة تبدو على هيئته ملامح**

حضارية. وقف بجانب العلوة و تصفّح وجوه الناس بعينين هادئتين ثم شرع في إلقاء الحل الذي يظن أنه الصحيح بأدب ولباقة قائلاً: حضرات السيدات والسادة، أرى أن توضع الكفة في ساحة البلدة، وفي كل يوم يأتي واحد منا ليقوم بترميم جزء منها بإتقان، ولا يُجبر أحد على القيام بذلك. وعلى المدى البعيد ننجز هدفنا على أكمل وجه، ثم أخرج منديلاً ومسح وجهه وأعاده إلى جيبه مطوياً، **ثم تابع كلامه قائلا:**

أجل أيها السادة، كل فرد منا حرٌّ في أن يشارك في إصلاحها أو لا يشارك وسأتبرع بنفسي لأشرف على عملكم وتنظيم أموركم، وسأكون عند حسن ظنكم.

فعلا صوت امرأة يقول: كيف تزعم أنّ كل فرد حرٌّ له أن يشارك في إصلاح الكفة أم لا ؟!. ألا تعلم أنّ الميزان هو أساس الحياة! جدير بكل واحد منا أن يعرف عنه ويساهم في إعادته لسيرته الأولى. **وما أن انتهت حتى انفجر صوت حادّ يقول:**

أيها المتحذلق، من أعطاك الحقّ لتكون المشرف علينا تظن أنك أكثر علماً، تدّعي الحرية ثم تُنصّبُ نفسك وكيلاً علينا!!؟ كلماتك مرفوضة وخابت ظنونك!!

فخرجت أمثلهم طريقة وقالت: هاتوا هذه الكفة المسكية وضعوها في مكان يليق بها، هيّا اصنعوا لها إطاراً موشّى بالذهب، واحفظوها بمكان لا تصله الأيدي ليتغنّى بها الشعراء ويفخر بمآثرها الأدباء. فتصبح أنشودة القاصي والداني وقبلة القريب والغريب. **وما أن انتهت حتى علا لغط الناس ثانية واحتدّ النقاش بينهم فنادى العدل هاتفاً بالجموع الهائجة:**

لِيُعِنْ بعضنا بعضاً فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه. غير أنهم لم يستجيبوا، وبدأت أصابع الاتهام تعلو فوق الرؤوس، وفي النهاية اتفقوا على أن يظلوا مختلفين، انفضوا عني وتركوني وانصرفوا ولم يبق بجانبي غير صحيح البنية، **فتقدم مني وقال:**

والآن ما تظن أصل البشرية ؟!.

قال الشبح : دعني لا أريد أن أخوض في أحاديث جانبية. فأشاح بوجهه عني وقال : حتى أنت ؟ ؟ ثم تركني وانصرف.

استدار الشبح إلى نور وقال :

ألا تعذرني ؟

قال نور : لا .

قال الشبح : وبعد كل الذي ذكرت!

قال نور : نعم. بوجه مملوءٍ حزناً وغضباً. ثم قال :

ما بال كفة الميزان الثانية.

قال الشبح : أما اكتفيت بما سردته عليك ؟.

قال نور : اعذرني فإني مصاب وأريد أن تمد يد العون لي لعل في كلماتك العزاء والسلوى لجروحي.

فمضى الشبح يتابع حديثه قائلاً :

أما الكفة الثانية فلا أثر لها حتى الآن.

قال نور : وهل تقعد مكتوف الأيدي ؟!

فأجاب الشبح بسرعة : لا هذا ليس من شِيَمي، إني يا صديقي لا أنام. ولن يغمض لي جفن حتى أعثر عليها، إنها لا تزال بحوزة أحد ملوك هذه الأرض. لقد سلبوها وأنكروا استلافها مني ثم اختفوا عن ناظري.

نور : وماذا فعلت أنت ؟.

الشبح : لا زلت أبحث عنها دون توقف.

نور : لقد مضى زمن طويل ألا تستعين بمن يستنصر لك.

الشبح : من تعني ؟!

نور : القوة أسلوب فعّال مع متعجرفين أمثال هؤلاء.

الشبح : ليست دائماً.

نور : ولكن الحقّ يحتاج إلى القوة لكي تحميه.

الشبح : إن ما تقوله صحيح لا أشك به ولكن...

فقاطعه نور قائلاً : ماذا تنتظر إذاً ؟!

الشبح : دعني أُتمم كلامي يا أخي، إنّ القضية ليست بالسهولة التي تتصورها.

فلم يستطع نور الصمت وتابع كلامه قائلاً : مَنْ للمظلومين في هذه الأرض إن تقاعست عن القيام بواجبك ؟ الحال يحتاج لموقف حاسم.

نظر الشبح إلى نور وقال : أتقارن حروب العهود الماضية بحروب القرن العشرين ؟

فتنحنح نور بامتعاض وقال : لماذا تتعب نفسك بمقارنة حروب الماضي والحاضر ما دام الظلم نفسه لا يزال على الأرض في لبوسات متنوعة ؟.

قال الشبح : ولكن الأسلحة فتاكة الآن، إنها تفني مدناً بكاملها في ثوانٍ عديدة!!

فأجاب نور بإصرار : وهذا يعني أن الخصم سيستسلم بثوانٍ عديدة أيضاً.

فتغير وجه الشبح وقال : ولكن العالم كله في طريق التسلّح الفتّاك، فالخصم مهما ضعف سيرد الصاع صاعين بطريقة أو بأخرى.

نور : لذا، لا بد أن ينتصر الحق في النهاية.

الشبح : ليس دائما ، إن الحروب المبيدة ستهدم المدارس ودور العبادة والجامعات وستأتي على الجندي والرضيع ، إنها لا تعرف حدوداً ولا تتبع توصيات مصلحين ولا أتقياء ، إنها لا تفرق بين صانيعها وبين الأبرياء منها ، حتى بعد انتهائها سيمتد غبارها المسموم سنوات طويلة يعيث الأمراض والأوبئة في الإنسان وبيئته ، لذا عدلت عنها لا خوفاً منها ، وإنما حماية لحق الإنسان في هذه الحياة . فمن الأفضل يا صديقي أن تفكر بطرق تصلك إلى الحق دون استعمال العنف .

فهتف نور بغضب : يا لك من جبان .

قال الشبح : تمهل ولا تسيئ الفهم .

نور : ولكن لماذا وجدت القوة في هذه الحياة ؟!

الشبح : ليس القوة معناها العنف دائماً . للقوة طرق ومفاهيم متعددة أن تصبر على أذى الأشرار عند إصلاحهم قوة ، والحكمة إذا وجدت قوة ، والتخطيط لإنجاز الاهداف البعيدة ثم تنفيذها دون فساد قوة ، ومع ذلك أنا أقدم على استعمال القوة بمعنى العنف في حالة واحدة .

قال نور : أحقاً تقول ؟ ؟

الشبح : بكل تأكيد .

نور : هل بعد أن يلقّنك الخصم درساً لا تنساه ؟!

الشبح : لا يا نور استعمل الحرب للدفاع عن نفسي ولكن لا أبدأ به كخطوة أولى لحل عقباتي .

فغضب نور وبدأ يردد قولة الشبح : في حالة واحدة دفاعاً عن النفس . في حالة واحدة دفاعاً عن النفس ، وهل تظن أنّ لديك الوقت الكافي لتحمي نفسك إذا اُعتدي عليك بالأسلحة المدمّرة ؟!!

أجاب الشبح: نعم وإن لم يكن، فمبادئي ستحيا.

ثم رفع رأسه ونظر إلى الأفق البعيد وسادت برهة من الصمت، قال الشبح بعدها: في المستقبل ستلغى كلمة الحرب من مفردات الحياة وسيكون مقرها الأخير في القواميس.

فقال نور: بعد هذا الصمت ظننت أنك ستوافقني، واعجباً منك، أرهقتك نوائب الحياة ولا تزال تتكلم بلغة الفكر والتفاؤل، باللّه عليك من أوحى لك بهذه النبوءة؟

الشبح: إنها ليست نبوءة، ولكن استقرئ العلم والتاريخ وستصل إلى ما وصلت إليه.

نور: أتستهزئ بي؟! وكيف أستقرئ العلم والتاريخ وأنا قابع في سجني خمسة عشر عاماً لم أر فيها شمساً ولا أهلاً ولا طعاماً إلا ما يسدّ الرمق ،لا ثياباً إلا خرقاً وضعت على جسدي؟! وفوق ذلك كان التعذيب نديمنا وغسيل الدماغ كتابنا ومنهل معرفتنا. **وأحسّ بالكلمات تتعثر في حلقه ثم يعود القهقرى لصدره، وبشق الأنفس تابع حديثه قائلاً:**

كان عليك أن تدع التاريخ والعلم وتستقرئ وضعنا نحن الابرياء وتبحث عن حل لنا ولأمثالنا.

وحملق نور في وجه الشبح ليرى مدى وقع كلماته فوجده كما هو.

فقال له الشبح: لقد مُلئت حزنا فقصتك واحدة من ملايين القصص التي رأيتها وسمعتها. أتظن أنني لم أتأثر لهـول قصتك؟ يا أخي لقـد استوفت ملامح وجهي تعابير الحزن كلها التي وجدت في العالم، لقد صـارت نسيجـاً ومعالمـاً دائمة فيه.

فقال نور: أتعلم لماذا!!

قال الشيخ : نعم .

فقاطعه نور بحدة وقال : إنك لا تعلم . فقد كان أولى بخطوط القوة أن تحل محل خطوط الحزن في وجهك .

الشيخ : ولكن استعمال القوة العسكرية الآن دليل على تخلّف التفكير والمبادئ والقيم الإنسانية .

فقال نور بغيظ : لا تزال تردد وتعيد ما تظنه صحيحاً ، وكأنني بحديثي معك أصرخ بوادٍ سحيق لا قاع له .

الشيخ : أنا لا أردد ما أقول ، وأريد منك أن تصغي إليّ لأوضح لك ما أعنيه . أولاً أريد أن أطرح عليك سؤالاً :

هل تظن أن تفكير الإنسان الحالي وقيمه وسلوكه كتفكير وقيم وسلوك الإنسان البدائي ؟

قال نور : طبعاً لا .

قال الشيخ : إذاً تفكير الإنسان في تطور دائم وخبرته واكتشافاته تنمو أيضاً .

قال نور : صحيح

قال الشيخ : ولكن للأسف عقله لا يزال في مرحلة الطفولة ، ولربما في المستقبل يصل لمشارف النضج ويصبح إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، إنساناً يأنس له الآخرون ويسعدون به ، لا مضرماً للحروب ومسعراً للمصائب .

نور : دعني من هذا الآن ، قل لي من للمستضعفين وللمظلومين في هذه الأرض ، هل كتب عليهم أن يكونوا ضحية فلسفتك هذه ؟! إنهم مرضى بلا دواء ولا طبيب ، إنهم جياع بلا طعام ، عراة بلا ملابس ، مشردون بلا مأوى . إنهم يموتون بطرق شنيعة وأنت لا زلت قابعاً تفكر .

من سيمد لهم يد العون وحالك يرثى لها ؟! إنهم يترقبون نصرتك ولا مجيب. لقد أضحوا في حالة عجيبة لا توصف، حالة خارج الزمان، أتعي ما أقول ؟!. منذ خمسة عشر عاماً والايام تتوالى عليهم مُلة رتيبة خلا وحشية التعذيب، وبالرغم من ذلك لا زلت قابعاً بين كفة مكسورة وأخرى مسلوبة.

كفاك إصلاحاً لهذه الكفة المحطمة وبحثاً عن المسلوبة الأخرى، فأنت من أنصار التطور يا عزيزي، ولم يبق مكان لميزان بكفتين في هذا العالم المتحضر. هيّا جدد ميزانك واجعله يعدل بكفة واحدة.

الشبح: هدئ من روعك يا نور، كلانا يعزف اللحن ولكن بقيثارة مختلفة.

نور: بل كل منا يترنّم بأنشودة مختلفة. **ثم وضع يديه على صدغيه وأسند مرفقيه إلى ركبتيه وقال:**

متى ستأخذ دورك في هذه الحياة ؟ قل لي ؟.

الشبح: عليك أن تدرك حقيقة يا نور.

نور: ما هي ؟!

الشبح: أنا لست مسؤولاً عن أخطاء الناس.

نور: فلم وُجِدتَ إذاً ؟!

الشبح: وجدت لأتوّج رُقيّ تفكيرهم، إصلاح أغلاطهم مرهون بصحة عقولهم وقلوبهم وبقدر تمسكهم بقيمهم.

ثم صمت الاثنان وصار كل واحد منهما ينظر إلى الآخر يتفرّس معالم وجهه، وحلت محاورة العيون محل محادثة العقول والقلوب والأفواه.

وبدا العدل لنور عاجزاً كفجر الشمس عند الظهور في نهار صيف تموز، واهياً أوهى من خيوط عنكبوت نسجت على ألعوبة تتوثب بين مفتول العضلات ضرير ومقعد بصير.

وعاد شريط الفيديو يكرر عرضه في مخيلة نور، فأحسّ بالضيق، وقال في نفسه لم يجدِ هذا اللقاء شيئاً، ذهبت آمالي أدراج الرياح، ماذا أفعل؟ من يستنصر لي ولإخواني الذين تركتهم وراء القضبان؟ وأحسّ بحشرجة في صدره وتدافعت الكلمات على لسانه غير أنه أحسّ بعدم فائدة الكلام مما زاد إحساسه بالضجر، **فتألم الصمت من حال نور ولم يُجْدِه الصبر على السكوت. فانطلق يقول:**

أيها الشيخ، لقد عشت حراً طليقاً تنهل من قطوف العلم، تجول في البلاد، وتلقى من تريد من الناس من كل مكان ومن كل مشرب.

بيد أن نور قضى زهرة عمره وذروة تعطشه للحياة والعلم في السجن، ليس فقط في السجن، وإنما في سجن مُلئ تخلفاً وجهلاً بالإنسان وقيم الإنسان، وبالحياة وقيم الحياة، لذا كلاكما رأى الحياة بنظارتين مختلفتين.

قال نور: وأسفي. لقد عاش حراً طليقاً يلقى من يريد من الناس يذهب إلى المكان الذي يريد، ونسي أن يعرّج ولو ساعة على السجن ليخفف عنّا نحن الذين كنّا بأمسّ الحاجة إليه قبل أي إنسان آخر في الأرض.

فسادت برهة صمت مرة أخرى بعدها التفت الصمت إلى الشيخ وقال:

جدير بك أن تلقى أصحاب الأقلام وتتحفهم بأحاديثك.

قال الشيخ: كلامك فيه شيء من الصحة.

فتابع الصمت كلامه قائلاً: إنّ المفكرين والكتّاب هم أصحاب الخطوة الأولى في تغيير الناس.

قال الشيخ: سأحاول العمل بما ذكرت، ولكن نضج عطائهم يحتاج إلى الزمن.

قال الصمت: جدير بك أن تلقى كليهما.

أصغى نور إلى حديث الصمت. وقال بصوت خافت: سأمضي إلى الزمن قبل أن يدركه أحد لعلي استشف منه حلاً لوضعي وانطلق يسابق الريح في سيره.

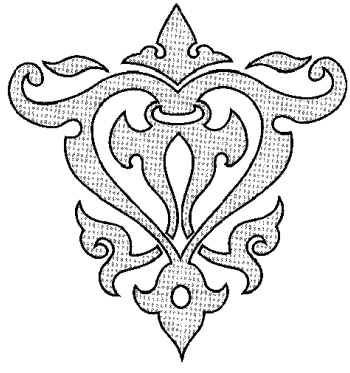

الزمن

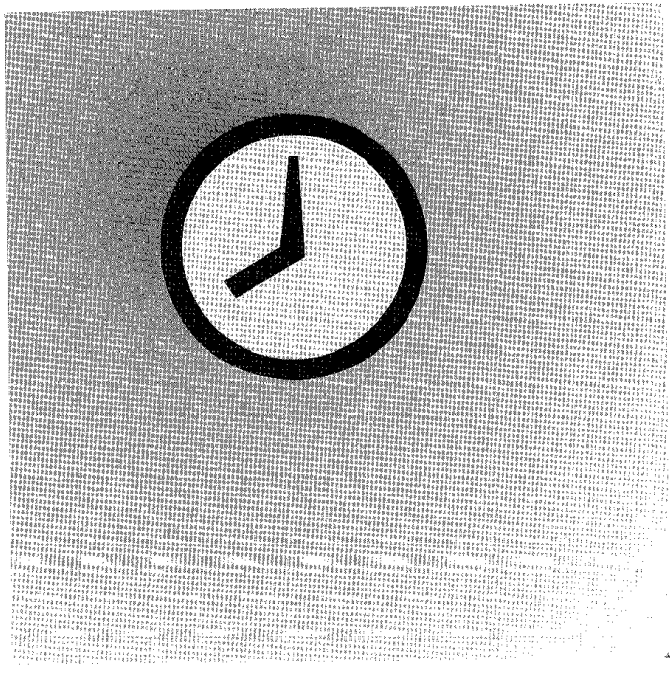

عبثاً يحاول أن يلحق به، قف.. تمهل.. نادى وهو يلهث من سرعة الركض ووضع يده اليمنى على صدره لتهدئة أنفاسه المتلاحقة وواصل الجري.

لم يسمعه، لم يلتفت إلى الوراء ولو مرة واحدة يأله من سريع الخطا.

مدّ يده اليسرى وأمسك بأهداب الزمن وصاح بصوت مرتفع:

على رسلك إنّ لي عندك حاجة! نظر الزمان لخلفه متعجباً لم يستوقفه أحد من قبل بهذه الصورة وأجاب:

لا أستطيع.

وبدأ يتعثر المسكين وراءه من التعب لقد سلبه السجن قواه وعافيته ومع ذلك مدّ يده اليمنى ليحكم الإمساك بما استطاعت اليسرى أن تصل إليه وقال:

أُناشدك بالله أن تسمعني.

فأدار الزمان وجهه، فإذا به حيال هيكل عظمي مطليّ بالجلد الإنساني. فسأله متعجباً:

من أي مقبرة خرجت؟

فتمعّر وجه المسكين وأجاب بنفاد صبر:

من مقبرة الإنسان البدائي ومدافن العصر الحجري في القرن العشرين.

فدهش الزمان وقال: هيّا عُدْ من حيث أتيت فإن يوم البعث لم يحن الآن.

قال نور: أتنكر عليّ ولا تمد يد العون إليّ ؟

فعاود الزمن النظر إلى وجه نور الحزين، وبدأ يبطئ الخطى فتوقفت دورة الأفلاك، وخيّم السكون على الخليقة، فشخصت أبصار الشموس ودبّ البرد في أرجاء الكون.

فقال الزمن: أسرع وأخبرني ما بك، أنا لا أستطيع الوقوف مطلقاً.

نور: لقد سلبتني خمسة عشر عاماً.

الزمن: أنا ؟!

نور: نعم أنت، أنت.

الزمن: لا تتسرع في الحكم.

نور: إذاً من أخذها ؟ هل أقول أخذها الظلم مني بالقوة وأنا قابع خلف القضبان لا حيلة لي.

وصار نور يزرع الأرض جيئة وذهاباً وهو يتابع كلامه أخذها مني ثانية بثانية ودقيقة بدقيقة وساعة بساعة ونهاراً بنهار وليلاً بليل وأسبوعاً بأسبوع وشهراً بشهر وعاماً بعد عام والجسد مني يذوي والنفس مني تذوب.

ودفعها إليك بكرم ودون حساب عربوناً لبقائه ورشوة لسكوتك عن طغيانه.

وأخذها من أمي، عبرات لا ترفأ، وحزناً لا يرأب، ودعاء بالليل والنهار وقلبها للّه دائماً يتضرّع

ونثرها بين يديك أغاني وأهازيج وألحان لعربيد ظمآن لا يكتفي، وللمزيد يتطلع أمَاه... أي أرض أقلتك، وأي سماء أظلتك، وأي نهار لَمك، وأي ليل ضمّك ؟

ثم استدار نور إلى الزمان وقال: إليك عني، لست أنت الزمان، أنت من من صروف الزمان، أنت المُختَلِس من سنين عمري، أنت المُتهم. عليك بالمثول حالاً أمام العدل قبل الطغاة والظلاّم.

قال الزمن: لا حاجة لي في سنواتك هذه

نور: لِمَ لا تُعِدها إليّ ؟

الزمن: لأنها أصبحت في حوزة التاريخ.

نور: إنها أجمل سنين حياتي، إنها عهد الفتوّة والشباب والقوة، هيّا أعدها إليّ الآن أريدها حالاً

الزمن: أنا لم أسلبك خمسة عشر عاماً ولكن وهبتك معانٍ كثيرة لم تكن تدركها لولا تلك المحنة.

نور: لقد ضيعت خمسة عشر عاماً من عمري أتسمعني ؟!

الزمن: من قال ذلك ؟

نور: أنا أفهم ما أقول

الزمن: أيها المسكين لقد جسدت فكرة فعشت مرتين

نور: قلت أريد استرجاع تلك السنوات حالاً

الزمن: آسف لا أستطيع أن أعطيك من الماضي

نور: أريد صحتي وقوتي

الزمن: يمكنك استرجاعها بالعلاج والعلم، لقد تقدم الطب كثيراً

نور: وما حال فتوتي وشبابي ؟

الزمن: خذها من المستقبل

نور: وكيف ؟

الزمن : أقبل على الحياة يا نور! اعمر الكون واعمل لدنياك وكأنّك تعيش أبداً، العمل والعطاء هما الشباب الدائم

نور : أهكذا وبكل سهولة ؟!

الزمن : نعم

نور : وما مصير الظلم ؟

الزمن : مقرّه في متحف المستقبل

نور : وما مصير المظلوم ؟

الزمن : لن يبقى مظلوماً!

قال نور وقد أعياه الحديث : الهوّة تزداد إتّساعاً وعمقاً.

الزمن : أي هوة ؟

نور : التي بيني وبينك.

الزمن : ولماذا يا نور ؟!

نور : التمست حلاً لي ولأمثالي فطرت بي إلى عالم مدينتك الفاضلة، لكن لم أجد مرادي.

الزمن : وداعاً، لا أستطيع الوقوف أكثر من ذلك

فقال نور : بإصرار : ولكن عليك أن تقف وتصغي لأمثالي لعلّنا نصل إلى حل، ثم أردف قائلاً : باللّه عليك هل حدثت أحداً من قبلي.

الزمن : معذرة ليس لدي الوقت الآن يا نور.

ومضى يدفع عجلة الحياة بكل ما أُوتي من قوة.

* * *

العلم

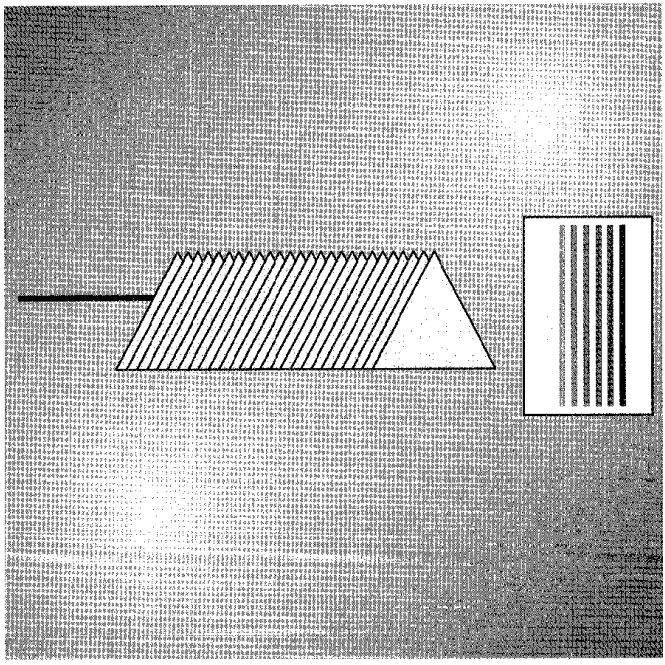

كان عليه قطع الوهاد الممتدة، والتلال الوعرة، وارتقاء المرتفعات وتجاوز الصحارى لكي يصل إلى العلم، وفي النهاية عرّج على صومعته فوجده كعادته منهمكاً في البحوث والتجارب وقراءة الكتب، ومع ذلك لم يشغله استغراقه في أعماله عن الترحاب بنور لما رآه قائلا بتواضع:

قدمت أهلاً وحللت سهلاً، تفضل على الرحب والسعة.

فتقدم نور وقال له: شكراً لك

وما أن مشى خطوات داخل الصومعة حتى فوجئ بضيق المكان فقال في نفسه: أي رحب وسعة هذه؟ الصومعة مملوءة بالمراجل والأنابيب والعينات والقوارير والمجلدات، إنه هو نفسه يتحرّك بصعوبة بين أشياء لا تُعدّ ولا تُحصى!

يا إلهي وأين سأجلس؟ أين المقعد؟

حتى ولو وُجد ليس له مكان!

وبدأ يتحرك بصعوبة وسط الصومعة، إلى أن وجد كرسياً لا بأس به في زاويتها، فترامى عليه من شدة التعب والإعياء.

لم يستغرب العلم منظره، لقد تعوّد على قبول الناس كما هم، فمعرفته الواسعة زودته بخبرة كبيرة عن طبائعهم وعاداتهم وأشكالهم وألوانهم وأزيائهم ولغاتهم وأخلاقهم وأمزجتهم، ومع ذلك أثار منظر نور في نفسه تساؤلات، فبدأ يحلل سبب هزله وتعبه، وبدأ يفترض أسباب ذلك في ذهنه مُبْتَدِعاً بربما ولعل وبسبب ولأنّ.. إلى أن بادره نور قائلاً:

هل لك أن تعطيني كوباً من الماء ؟

فأجاب العلم: طبعاً يا عزيزي لا بد وأنك متعب

قال نور: أصبت والله

قال العلم وهو يناوله كأس الماء: لا بأس أن تستريح قليلاً، وارتأى العلم أن يعود لتجاربه يقلب النظر فيها

قال نور: أريد أن أحدثك في أمر

قال العلم وهو يضع يديه على موشور زجاجي مصقول: بكل سرور ولكن انتظرني قليلاً

قال نور: ولكني لا أستطيع المكث هنا مدة طويلة

فأجاب العلم وهو يضيء مصباحاً أمام الموشور: آسف يا صديقي، لأنني أريد إنهاء تجربتي هذه، لقد بدأت بها منذ أيام بعيدة وكأنني على وشك الوصول إلى حل

فالتزم نور الصمت وأحسّ بالدقائق تمر وكأنها آماد

ومضى العلم يكرر تجاربه بدأب ودون ملل

وبدا العلم لنور وكأنه فنان كهربائي يعبث بالأضواء بجانب ذلك الهرم البلّوري اللامع، يقرب بعضها ويُبعد بعضها الآخر منه

لا شك أن الصمت فرصة له لكي يستعيد شيئاً من قواه، ولكنه أحسّ أنه بحاجة إلى شيء آخر ليستعيدها، إنه متلهف لخبرة العلم والحديث معه، لا الجلوس ساكتاً مراقباً لما حوله

وبدأ يتململ ويتنفس بعمق، مما لفت نظر العلم إليه وأثار انتباهه

وقال له العلم وهو يرفع عن عينيه نظارته الكبيرة: لا أريد أن أُثقل عليك، هيّا قل لي ماذا تريد ؟

فشعر نور بالارتياح، وبدأ يسرد عليه قصة الخمسة عشر عاماً المفقودة منه، فرقّ قلب العلم وقال له: والآن ماذا عليّ أن أفعل لأمسح عنك رهق الظلم ؟

قال نور: أنا عاتبٌ عليك أشد العتب

فأجاب العلم بدهشة: ولماذا ؟

قال نور: ألا تستحي أن تزود هؤلاء الأشرار بآلات ووسائل التعذيب والفناء ؟

فنظر العلم لجسد نور بارتباك وقال على الفور: خاب العلم وخسئ إن كان هذا مبتغاه، لطالما أقلقتني إساءة استخدام مكتشفاتي، ألا تعلم أن المعارك ما زالت قائمة بيني وبين من يسخر نظرياتي لانحرافاته ؟

أنا غير راضٍ عن هذا أبداً، **واعتراه الشعور بالذنب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأحسّ بجفاف الكلمات في حلقه، فابتلع ريقه وتابع كلامه قائلاً:**

إنّ سوء استخدام علومي أذْهَبَ عن عينيّ النوم، أقضّ مضجعي، أهمّني وأغمّني، وجبتُ أنحاء العالم طفت القارات، حللت في ديار شعوب وأقوام دهراً بعد دهر، وزمناً بعد زمن، لم يؤرقني شيء، بقدر ما أرقني، سوء فهم الناس لي، لم يكربني شيء بقدر ما أكربني أن أكون صهوة بلاء في يد الأقوياء.

ثم توقف قليلاً وتنهّد بعمق وقال:

يا أخي أنا حيادي المنشأ ، ليس لي بلد وليس لي لغة ، ليس لي عرق ولا لون ، أُقبل على من يقبل عليّ وأحِلُّ بديار من يفهمني وأرحل عمّنْ يُعرضُ عني ، وآسفُ لمن يمتلك القدرة على استغلال معارفي في وجوه الشرّ ، ولكن ما زلت أتوسّمُ معالم الخير في هذه الدنيا. ولا أنكر أن الباطل الآن لا يزال هو الأقوى ، ولكن معالم الخير أرسخ وهي الأبْقى

قال نور بعصبية المرهق: آه ما أقدرك على تبليغ ما تريد بالكلام ، ويا لك من محنك في تبرير أغلاطك وتسويغ أخطائك

قال العلم: أنا أتفهم وضعك يا نور ، وآسف لما سببته لك مكتشفاتي من أضرار ، قل لي ماذا عليّ أن أعمل لأساعدك الآن

فهدأت الثورة في نفس نور ، وقال برفق: إنّ قلبك كبير يا صاحبي وحالي كما ترى ، صحتي قد تدهورت كثيراً منذ دخولي السجن

فتألم العلم وقال: يا صديقي! لأوجاعك علاجان كيميائي وروحاني ، أما الكيميائي فالطب البشري قد تقدم كثيراً ، وما عليك إلا أن تقوم ببعض الفحوصات والتحليلات لتشخيص مرضك ، ثم التزم بتعاطي الدواء

أما العلاج الروحي للأسف الشديد فإنه لا يزال في البداية ، لقد تقدم العلم كثيراً في مجال الملموسات ، وأما في مجال الروحانيات فهو يحتاج إلى كثير من البحث والدأب.

ومع ذلك يمكن أن أعطيك شيئاً من العلاج الروحي ، ويا لقلة ما أعرف عنه!

فقال نور: تريد أن تعطيني فقط شيئاً من العلاج الروحي!

وما الذي ساعدني طوال هذه الفترة في السجن ؟. إنه ما أعرف عن هذا العلاج ، ولكن لا أظن أن الخلاص يقوم به وحده

أه.. لا تذكرني

لا أخفي عليك يا صديقي أني غضبت غضباً شديداً عندما حلّت بي تلك التهمة، فإذا بالحياة مظلمة سوداء في عيني، أحسست بحالة نفسية لا توصف، لقد أضحى السجن هو القبر لا محال أو لربما هو البرزخ! نعم أقولها بكل صدق، لم أجد لي متنفساً ولم يعد لي نصير حتى نسيت كيف يحيا الناس في البيوت والشوارع.

وأضحى الغيظ يعتريني والضيق ينتابني، أريد من يستنصر لي، أريد من يدافع عني، ولكن هيهات هيهات أن أجد ما أريد، كاد الحنق والغضب يوديان بحياتي ولا دواء لي ماذا أفعل؟ كيف السبيل لأثبت براءتي وأنا بين جدران السجن؟ ولا وسيلة تصلني بأهلي ولا حتى بالعدول من الناس سوى الأحلام والرؤى، يا إلهي ماذا أفعل؟! كاد الحزن يمزقني والغمُّ يقضي عليّ إلى أن وجدت من يهدئ من روعي، ويدغدغ مشاعري ويلتقفني بين جوانحه ويفرغ عليّ الصبر والسلوان

فقال العلم بتلهف ومن أين لك هذا المعين؟

فأجاب نور: لم يكن من خارج السجن أبداً؟

فأسرع العلم وقال: لا بد وأنه أحد السجناء من أصدقائك.

فأجاب نور: لا ليس ما تقوله صحيحاً

فقال العلم: إنه أحد السجانين أليس كذلك؟

قال نور: لا يا صديقي إنه من مكان لا تدركه الأبصار ولا تحسه الأيدي ولا تسمعه الآذان، إنه من صميم أعماقي ومن سويداء قلبي، انبعث فأشرقت له روحي، وحلّقت وجابت أجواء الفضاء وارتقت، وقاربت المجرات واستشرفت عوالم لا نهائية الآفاق.

فاشرأب عنق العلم، وقال بشغف قل بالله عليك من هو

قال نور : الآن أدركت ما تقول العلم الروحي لا يزال على أعتاب العلم المادي ، إنك لم تعرف حتى الآن من هو

قال العلم : كفاك لوماً يا عزيزي ، قل لي من هو ؟

قال نور ببساطة : إنه إيماني بأني على حقّ ، نعم إيماني بأني على حقّ ، بإيماني اخضوضرت أحجار السجن وأزهرت قضبانه ، فإذا هو باب جنة عدن ، بإيماني ازْوَرْقَ سقف السجن المملوء بالعناكب والمتشقق من الرطوبة فإذا هو سماء الفردوس

بإيماني اعْشَوشَبَت أرض السجن المملوء بالحشرات فإذا هي بساط سندسي وثير

بإيماني تَرَيحنت الرطوبة وتمسّكت فإذا بي أجوب أفياء طيبة أستنشق من ضوع ريحانها ونسائم أريجها .

طرت في مروج الجنان وبساتين ملتفة الأفنان ، فارتاح قلبي المطمئن بالإيمان

لا أخفي عليك كم عانينا من السجانين هؤلاء غلاظ الأكباد ، قساة القلوب ، كانوا يكيلون لنا الشتائم مرات ومرات ونحن الذين أُسقط في أيدينا لا مفرج لنا ولا سند . قابلت لعناتهم بطيب القول ، فإذا الران يتلاشى عنها وإذا ببنذور الحُبّ تتنفس وتبرعم في قلوبهم ، رويتها بالإحسان فاشتدّ عودها وربت وأثمرت روابط أخوية تشدهم إلينا

لم نعد في نفوسهم هؤلاء الضّلاّل المارقين ، لقد عرفوا أننا دعاة حقّ أبرياء ، حينئذٍ علمت أن جذور الخير دفينة في نفس كل إنسان مهما كان هذا الإنسان .

انسابت كلمات نور انسياب الماء الرقراق العذب في نفس العلم المتعطش للروح ، فقال له وهو لا يزال يعب من معاني كلماته : لقد لامست شفاف قلبي بحديثك هذا وزدتني علماً إلى علمي .

تابع نور كلامه قائلاً: بالرغم من ذلك أحسست بأنّ شيئاً ما يجب أن يتمم هذه الأحاسيس، وأن يكلل مساعيها بالنجاح، لقد تحررت أرواحنا، ولكن بقينا بحاجة ماسة إلى تحرير أجسادنا. نعم لقد شعرت مرات عديدة بأنني أحتاج إلى القوة لتدعم خلاصي وخلاص إخوتي.

بالإيمان لم يعد السجن سجناً يسحق كياني، لقد تحول إلى كوة أضاءت لي بعضاً من جوانب نفس الإنسان فيّ وفي أنفس السجانين.

هؤلاء المساكين مضرب أمثال الحمق والوحشية الذين تحولوا لأنصار لنا، ولكن لم يكن لديهم المقدرة لتغيير وضعنا، هكذا بقينا مساجين نشتاق إلى الحرية، ونهفو لحياة الأحياء في العالم الطليق. لقد أرهق السجن قوانا، وفتكت بنا الأمراض والأوبئة، فإذا بنا نرى أموراً ما رأيناها قط في حياتنا.

رأينا تاج الصحة على رؤوس السجانين يلمع ويتلألأ تلألؤ النجوم في سماء حالكة.

ورأينا الحرية بأعيننا تغدوا وتروح من خلال القضبان وتتبختر في كل زاوية من زوايا ممرّ السجن.

وأدركنا أنّ الحرية هي الحياة، أجل هي الحياة الحقيقية

لا يحسّ بها ولا يراها إلا من كان وراء القضبان

نعم بقينا سنوات بين تلك الحيطان المكفهرة ننتظر من يعدل ويحرر ويأخذ على أيدي الطغاة.

أسف العلم لحال نور وفكّر قليلاً ثم قال وهو يربت على كتفه: تعال لعلنا نرى مشكلة نور من الجذور؛ لقد أوحيت إليّ يا نور بأفكار كثيرة، وألهمتني بقبسات مضيئة من بحر معاناتك لتجربتي هذه.

ثم وضع الموشور على الطاولة، وأنار ضوء على صفحته الأمامية فخرجت من الجانب الآخر حزمة ملونة متباعدة.

نظر العلم إلى ما فعل، وقال لنور: ما رأيك في هذا؟

قال نور: لا حاجة لي في فيزيائك هذه الآن

قال العلم: لم أقصد ذلك يا نور، ولكن ألا تذكرك بشيء؟

قال نور: ولا بشيء واحد

قال العلم: ألا تذكرك بالإنسان؟

قال نور: وما تقصد؟

العلم: أقصد منشأ الإنسان، هكذا بدأ كالنور الأبيض بصفائه ونقائه، ثم كان من أمره ما كان، فتفرق واختلفت طبائعه وأخلاقه.

أحسّ نور بأنّ العلم يشدّه شدّاً إلى الحديث معه، فوجد فسحة في نفسه ليشاركه حديثه فقال:

يقولون إنّ هذا الاختلاف في الإنسان لدليل صحة المجتمع

العلم: أنا أوافق ما لم يؤد هذا الاختلاف إلى التناحر والاستعلاء، الاستعباد. تناحر الإنسان مع أخيه الإنسان، استعلاء الإنسان على الإنسان، استعباد الإنسان للإنسان.

نور: ما تقوله صحيح ولكن كيف الحل؟

العلم: هذا ما أفكر به، ولذلك أحاول الآن أن أعيد هذه الحزمة الملونة لنور أبيض واحد

أولاً حاولت وضع لوح زجاجي فلم أفلح

حاولت وضع مرآة ، لم أفلح

قال نور : الأمر بسيط ارفع الموشور .

العلم : لا أريد التهرب من الصعوبات مهما كانت ، أريد أن أجد حلاً لها ولو كلفني هذا وقتي كله .

صمت العلم هنيهة وقال : وجدتها . وأتى بموشور آخر واستقبل حزمة الضوء الخارجة عن الموشور الأول . فعادت كما كانت نوراً أبيضاً صافياً .

فقال العلم مزهواً : لقد نجحت تجربتي . **ولكنه أعاد التفكير مرة أخرى ثم قال :** لا لم تنجح تجربتي ليس هذا هو الحل الأمثل .

إنّ الاختلاف في الإنسان سيظل موجوداً وهذا أمر طبيعي ، ليس المهم أن يعود الطيف المولون ضوءاً أبيض ، ولكن المهم أن لا يحدث التباعد الحاصل من الموشور والمزداد كلها ازداد امتداد الحزمة الملونة . التباعد هو المشكلة إذاً . ثم تساءل كيف علاج هذا يا ترى ؟

وبدأ يفكر ويعيد التجربة مرات ومرات وعاد إلى كُتبه وموسوعاته يقلب النظر فيها إلى أن استوقفته صورة قوس قزح في إحدى الصفحات فصار يتأمله ويقول : لكم هو جميل ومنسق ، بالرغم من امتداده الكبير ظلّ اتساعه واحداً من أوله إلى أوسطه إلى نهايته ، إنه لا يعاني من مشكلة التباعد والتفرق التي أراها في تجربة الموشور .

وعاد يساءل نفسه مرة أخرى : متى يظهر قوس قزح ؟

يظهر باجتماع الشمس والمطر والغيم في معظم الأحيان .

إنه يجمع المتناقضات ويرسم لوحة فنية رائعة في الطبيعة تبهج الإنسان وتعلمه الكثير .

المنافسة قائمة دائماً بين الشمس بأشعتها الدافئة، والغيم بمطره المنعش، كل منهما يريد الغلبة أن تكون له في الأفق العظيم.

ولكن عندما يتعاون هؤلاء معاً تظهر ابتسامة الحياة ملء الكون بقوس قزح الذي يصل السماء بالأرض ويلف المعمورة من أقصاها إلى أقصاها برابطة التعاون والأخوة.

إذاً المشكلة هي مشكلة الموشور والضوء معاً، وما عليّ إلا أن أطوّر نوعية الضوء وشكل الموشور ليبقى قوس قزح في الحياة وإلى الأبد لا ليكون عرضاً، عندها تُحلّ مشكلة الإنسان وتصبح المثالية هي حياة الناس اليومية لا حلماً صعب المنال.

أستطيع أن أقول الآن وجدتها فعلاً. الموشور هو الحل وهو مفتاح المثالية.

كان نور يراقب العلم بشغف، وما ان انتهى حتى سأل العلم: وكم من الآماد نحتاج لنرى مثاليتك هذه؟

قال العلم: لا أستطيع أن أخبرك الآن لأنني بحاجة لرؤية أصحاب الأقلام.

فتبسّم نور وقال وهو يمزح: لقد أعجبتني ألوان موشورك هذه جداً، ما ترى مكاني من هذه الألوان المختلفة؟

قال العلم على الفور:

أنت يا نور في عداد الأشعة غير المرئية

أنت المثالية بقولك الصدق، لقد غاب ذكرك عن الحياة خمسة عشر عاماً، ولكن أثر عملك هذا ظل يحفظ للناس سير حياتهم وسرّ التحامهم مع بعضهم، ألا ترى بداية هذه الحزمة الضوئية أشعة غير مرئية ونهايتها أشعة غير مرئية. لقد أبت هاتان الاثنتان إلا الحفاظ على إخوتها من أن ينحل عقدها ويتبعثر.

فتبسّم نور مرة أخرى وقال:

أضف إلى تجربتك أيها العزيز أن هذه الأشعة غير المرئية لن تظل كما هي عليه وسترفض أن تبقى في الظل ، ستظهر إلى الوجود ، لذا عليك بالسعي لذلك .

ثم توجه نحو الباب وقال :

والآن وداعاً أيها الصديق إلى اللقاء .

قال العلم : كما تريد ولكن دعني أسمع منك .

قال نور : لربما عندما تنتهي تجربتك هذه .

ثم تقدم العلم مودعاً نور وأعطاه موشوراً صغيراً وقال :

لربما يكون فيه بعضاً مما تريد الآن .

قال نور : بكل تأكيد العزاء والسلوى .

ثم التفت للعلم وقال العزاء بموشور يحتاج إلى تطوير .

ثم وضعه في جيبه ومضى يشق عباب طريقه بين الجبال .

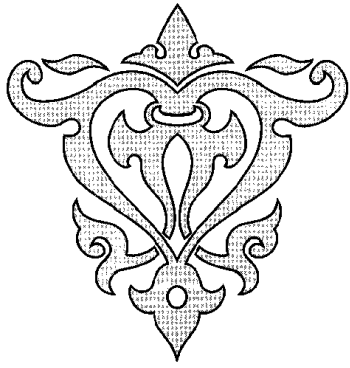

المثالية

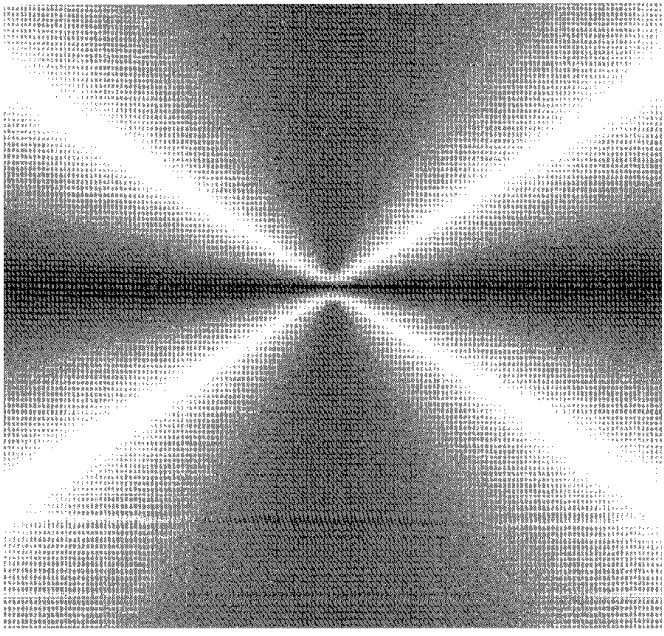

عثرت قدماه وكاد ينزلق على منحدر أبيض موشّى بالخضرة، فتمسّك بجذع شجرة قريبة واستعاد توازنه ثم واصل المسير، وإذا به ينزلق مرة أخرى، فاستعان بأغصان بعض النباتات وعاود المشي بحذر ثانية، فصار ينظر إلى من حوله ليجد مرتكزاً يعينه على السير، وبينما هو يجيل النظر رأى بعض النساء والرجال يتوجهون إلى جبل شاهق، فاستأنس بهم وتابع مسيره محاولاً تجنب فقدان التوازن، وما أن مشى خطوات أخرى حتى شاهد بعض الناس يتسلقون منحدرات ذلك الجبل الشاهق بصعوبة ظاهرة.

فسألهم عن وجهتهم. فقالوا:

إننا جميعنا نقصد المثالية.

فقال نور: ألا يوجد مصعد يصل منزلها ؟

أجابوه: لا يا نور لا يوجد سلم ولا باب لذلك سوى هذه المنحدرات الرخامية الملساء

فأعاد النظر فيه مرة أخرى وقال: لقد ضاهى قمة أفرِست ومرتفعات الهملايا وسور الصين العظيم. وهالته الصعوبة التي يعاني منها المتسلقون.

فقالوا له : ولا يوجد جدران لبيتها أيضاً .

قال نور : ولا حتى جدران لبيتها ! ؟ أي منزل هذا ! ؟

فقالوا له : لقد أمنت اللصوص وقطّاع الطرق .

قال : يا لحسن طالعها ويا لصعوبة وصول قاصديها .

وراعته العقبات التي يعاني منها المتسلقون ، ورأى الكتب على ظهور بعضهم وفي أيدي آخرين السلاسل والاغلال ، وعلى أيدي بعضهم الدماء ، فضلاً عن العرق المتصبب من أجسادهم ، وكثيراً ما انزلق هؤلاء إلى الأرض مرات ومرات ولكنهم أعادوا الكرة .

أحسّ نور بأنّ شيئاً من عزيمته يرتدّ إليه وقال : لِم لا أكون واحداً منهم عندي ما أقوله للمثالية ، ولي معها حديث ذو شجون .

وشمّر عن ساعديه الهشتين وبدأ التسلق بهمةٍ لا تلين . فهوى مرات ومرات دون أن تخور عزيمته ، ولكن بعد حين أحسّ بالتعب وكاد اليأس أن يستولي على نفسه ، لولا أن تذكر كلام العلم عن الموشور .

فأخرجه من جيبه قائلاً : لا بد وأنه المفتاح لمقام المثالية العالي .

إنه مفتاح لباب غير موجود ، سأجعله مطرقة تزيل هذه الحواجز العالية . وحمله بيده اليمنى ، وبدأ يضرب بحافته الحادة المنحدر الأصم إلى أن فتح ثغرة فغرس بها الموشور ، ليكون له متكئاً في الصعود ، وبدأ يكرر العملية هذه إلى أن اجتاز مسافة لا بأس بها فأحسّ بالسرور لما قام به ، ووجد نفسه قد سبق الآخرين بأشواط شاسعة

فقال لقد أفادني العلم بموشوره هذا ، وواصل الطرق الشديد وفتح الثغرات بالرخام الأملس ، والاستمرار بالصعود الجاد .

فأطلت المثالية من عُلاها إثر سماع هذه الضوضاء ونظرت إلى نور وهو يتابع ما بدأه، فلم تقل شيئاً، ولم تحتج على عمله أبداً، ثم اختفت عن الانظار، فواصل نور صعوده بإرادة حديدية وعزيمة صلبة إلى أن شارف القمة، وما أن وصل حتى استقبلته المثالية بوجه حلو وابتسامة مشرقة قائلة:

لقد فزت والله لقلّما انتهى أحد لما انتهيت إليه.

فمسح نور العرق المتصبب عن وجهه وقال بغضب: قبّح الله وجهك وقاتل جمالك.

لم تأبه لكلماته وتابعت حديثها قائلة: من أين أتيت؟

فأجابها نور وهو يلهث من التعب:

أتيت من مكان كمكانك هذا. أتيت من السجن.

قالت: نعم، لقد قلت في نفسي لا بد أنك أتيت من مكان غير عادي.

وما أن أحسّ نور بأنه تجاوز مرحلة الخطورة واستيقن أنه لا تسلق بعد ذلك حتى هدأت أنفاسه المتلاحقة وشعر بالاسترخاء يسري في جسده المرهق وقال بهدوء:

لم أقصد أن أقول قبّح الله وجهك وإنما قصدت أن أقول قبّح الله عملك هذا! كيف يحلو لك الجلوس بهذا المكان آمنة مطمئنة غير مكترثة لما يحدث لهؤلاء المساكين الذين يصعدون ويهبطون دون جدوى؟

ويحك، ألا تساعديهم!

تبسمت المثالية وقالت:

لا، أنا لا أساعدهم ليس هذا ما أريد وليس هذا عملي.

فقال نور بغيظ: لا بد أنها تسلية ممتعة لك بهذا القفر الشاسع المعزول.

فأجابت: ليس المهم أن يصل هؤلاء الطموحون إلى مكاني، ولكن أن يحاولوا التيمم شطره دائماً هذا ما أبتغيه.

فقال نور: لأول مرة في حياتي أسمع حجة كهذه تبرر القعود عن مساعدة هؤلاء المنهكين.

فتغاضت المثالية عن كلامه وقالت له: لا بد وأنك قمت بعمل عظيم بلغت به هذا المكان.

قال نور: حقاً ما تقولي.

قالت: ماذا عملت ؟

أجاب نور: الأمر بسيط جداً كل ما فعلته أنني قلت الصدق، وللأسف فإنني بلغت به السجن قبل أن أبلغ مكان المثالية العظيم هذا.

قالت المثالية: مرحى لك شيء رائع.

فاستشاط نور غضباً وقال: هل تقصدين أن بقاءك في هذه الحياة قائم على آلام الناس وعذابهم ؟

هل قدر لغذائك أن يكون حزنهم وكربهم وخيبة آمالهم ؟

هل قدر لمائك أن يكون دموعهم ؟

فأحست المثالية بعبء أفكارها وثقله على كاهلها نتيجة قول نور فأجابته بلطف:

لا يا نور، بقائي مرهون بإرادتهم وتصميمهم، غذائي إصرارهم وثباتهم، مائي دموعهم، ولكن ليس دموع حزن وإنما دموع فرح لإنجازاتهم.

فقال نور: ألا يوجد طريق آخر لبلوغ هذا المكان غير سبيل التعاسة، لقد دعوت الناس لأفكارك والأمر من ذلك أنك غسلت أذهان العديد وملأتيها بأحجياتك هذه.

قصدت العدل والعلم والزمن فحدثوني بمنطق آرائك هذه.

أجابت المثالية: منذ الأزل والناس في حاجة إلى نجوم السماء لتهديهم سواء السبيل.

قال نور: ولكنني أرى أنهم يهتدون بمجرات غير مرئية.

فقالت المثالية: أكون كما ذكرت عندما يستأثر بأفكاري كل إنسان أو شعب بمفرده ويضفي عليها من صبغته وعاداته ما يضفي، ويدّعي بعد ذلك أنه هو المثالية الأوحد.

قال نور: أوَ تدّعي أنك الحق إذاً ؟!

قالت المثالية: لا، أنا لست كذلك، أنا والعدل والعلم لبنات وركائز في بناء الحق الكبير.

نور: أريد أن أبلغك شيئاً.

المثالية: قل ما تريد.

نور: إنك على علم ببث آرائك وجذب الناس إليها ولكنك جهلت أمراً عظيماً.

المثالية: ما هو ؟

نور: أن تعلّمي أدعياءك كيف ومتى يبلّغوا آراءك للآخرين. أنت الآن كشعلة تنبثق من أعواد ثقاب تضيء وتخبو بسرعة، ولربما تقضي على أجيال من اليافعين المتوقدين، ولربما تحرقين وتدمرين.

المثالية: كلامك مقبول في حالة سوء فهم وتفسير آرائي ولا تنسى أنها تجربتك وليست تجربة الكثيرين.

نور: ولكنها لا زالت تتكرر.

المثالية : نعم تتكرر بسبب قصور فهم الإنسان لطبيعة الحياة. وللإنسان نفسه ولغاية وجوده في الكون. أضف إلى ذلك عدم مرونة فكره وتحجره في كثير من الأحيان.

نور : ما أراك سوى شجرة جرداء قابعة في إحدى أقطاب الأرض الثلجية.

وحمل الموشور بيده وبدأ يمشي ويقول :

العلم يظن أنه هو المفتاح لمعلاّك. وبينما هو يتابع حديثه انزلقت قدماه فهوى كالريشة في مهب الرياح العاتية، وصار يهوي ويهوي إلى أن قارب الأرض فأيقن أنه هالك لا محالة. **فصرخ أحد المتسلقين بأعلى صوته :**

عليك بحزام الأمان حالاً ! عليك بحزام الأمان !

فقال نور : أين هو الأمان ؟.

وأحسّ بأنه فقدَ السيطرة على حركة يديه وقدميه.

فعاد المتسلّق يقول : حزام الأمان على جانبيك.

وفي الواقع كان صوت أزيز الطائرة هو الذي دوى في أذنيه موقظاً له ومشيراً عليه أن يضع حزام الأمان. فالطائرة بدأت بالهبوط منذ عشرة دقائق.

ففتح عينيه مذعوراً وقال :

الحمد للّه، لا أزال على قيد الحياة.

وثبت الحزام كما ينبغي له أن يكون. وقبض بكلتا يديه على ذراعي الكرسي، إلى أن توقفت الطائرة في مطار مدينة الروابي.

* * * * *
* * *
*

مدينة الروابي

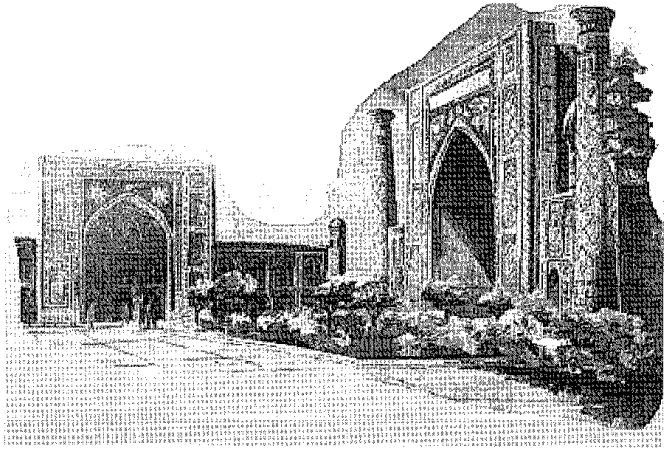

كالحائر سار بين مفقودين في مطار مدينة الروابي.

الأول بحث عنه طيلة خمسة عشر عاماً ويزيد. ومع ذلك لم يره. لم يدرِ حين أجحفت في حقه قضبان السجن ومنعته من حق الوصول إليه سبب عدم مبادرة هذا المفقود نفسه من الجدِ في إغاثته.

والآخر لازمه كطيفه طيلة الفترة ذاتها، لم يتركه في ليله ونهاره في صبحه ومسائه حتى في أحلامه.

لم يكن مفقوده حقيبة أمتعته أبداً، فهاهي ماثلة أمامه بهدوء كساعة استلامها من أخيه تحكي له أناقتها وحسن ترتيبها بعضاً عن أنامل أمه الحبيبة. ولم يكن جواز سفره أبداً، فهو لم يحتج حتى لإخراجه من جيب قميصه إلى الآن.

حمل نور حقيبة أمتعته ومضى يسير مع خالد الذي استقبله بحرارة قائلاً: أهلاً بك ومرحباً في مدينة الروابي، أعطني حقيبتك لأحملها عنك.

سُرّ نور بترحابه وناوله الحقيبة متشكراً له حسن صنيعه وسأله:

أين مكان مراقبة جوازات السفر؟

أجاب خالد بلطف: لا يوجد لدينا مكان لمراقبة جوازات السفر.

تعجّب نور وقال: إذاً ألا تدلني على مكان تفتيش الحقائب.

قال خالد: لا يوجد شيء كهذا مطلقاً، ولسنا بحاجة لذلك أبداً.

تلفّت نور من حوله باستغراب كبير وبدأ يمعن النظر في قاعة الاستقبال الكبيرة، في أبوابها ونوافذها، في مقاعدها ومناضدها، في زواياها، وفي كل مكان فيها ليبحث عن ضالته فلم يجدها مطلقاً، فبدت على وجهه تساؤلات عديدة وصار يتلكأ في مشيته.

قال له خالد: لا بد وأنك متعب بعد هذه الرحلة الطويلة. **وأمسك بذراعه وخرج الاثنان من قاعة الاستقبال، ثم اتجها إلى السيارة، ففتح خالد بابها بكل سهولة وقال لنور:**

تفضل أيها الأخ العزيز.

قال له نور وهو يدخل إليها: لقد نسيت أن تُحكِمَ إقفالها يا خالد.

قال خالد: لا لم أنس يا نور. لماذا تريد مني أن أُحْكِمَ إقفالها إذا كان الناس في هذا البلد كلهم إخواناً وأصدقاء يحب بعضهم بعضاً، ويرعى بعضهم بعضاً.

لم يستطع أن يفهم نور ما يعني خالد، وأحسّ بكلماته تصطدم في أذنيه ثم تتساقط على رقبته وملابسه دون أن تجد سبيلاً لرأسه. لقد طمس السجن بصيرته وأنهكه بطريقة حياته ومفاهيمه وما عساه أن يفعل الآن سوى أن يجلس على كرسي السيارة ويخلد للراحة.

كان الطريق لمدينة الروابي طويلاً طويلاً جداً، ومع ذلك أحسّ نور بمتعة واسترخاء لا نظير لهما عند جلوسه على كرسي السيارة الوثير.

يا لها من نقلة شاسعة ، بالأمس كان يفترش الخشب والحصير في السجن . يتحرك بصعوبه السلاحف في غرفة حَوَت العشرات والعشرات من أمثاله . والآن يتحرك بسرعة كبيرة بالسيارة ، وقبلها بسرعة الريح في الطائرة .

كان فرحه عظيماً بالسير دون قيود وأغلال في مطار مدينة الروابي ولكنه كان يتعثّر في مشيته كطفل حديث عهد بالسير على أقدامه . آه لقد نسي مشية الإنسان الحر في الشوارع العريضة والأماكن الرحبة . ثم يجلس في كرسّي السيارة الوثير وكأنه طفل عليل يجلس في حضن أم حنون تغمره بذراعيها الغضّتين .

في هذا الجو الدافئ ، لم يجد نور حرجاً من إطلاق العنان لناظريه لتستمتعا بسماء مدينة الروابي الصافية كصفاء ماء عذب يخرج من قمة ينبوع جبلي ، بطيورها المفردة بألحان السرور والحرية ، بأشجارها المنثورة في الحدائق والبساتين في الطرقات ومداخل البيوت كأعلام السلام ، بفراشاتها الملونة المرفرفة فوق الاعشاب السندسية ، بجداولها المنسابة بين صفين من الأزاهير والورود .

حتى أطفالها لم ير أمثالهم في البهجة والعبث البريء واللعب الهادىء . لأول مرة يعرف أن السعادة الحقيقية تنبعث من محياهم وابتساماتهم .

وعزفت زقزقة العصافير ورفيف أجنحة الطيور والفراشات وهديل الحمام وضحكات الاطفال أعذب الالحان .. ألحان السكينة والأمان .. لتُسعد مسامعه بأرهف الموسيقى وأجمل المعزوفات .

لأول مرة يرى الطمأنينة تسير في الشوارع والأزقة والحوانيت .

لأول مرة يرى الحمائم البيضاء ترفرف في الطرقات تبني أعشاشها على أبواب البيوت ونوافذها .

خفّض خالد صوت المذياع وقال لنور : لقد انتهت نشرة الأخبار .

قال نور على الفور : ظننتك تستمع إلى برنامج ثقافي

إن أخباركم فيها متعة للعقل ونزهة للتفكير و إنعاش للروح!!.

لقد عهدت الأخبار منبع المآثم والصراع في العالم!!!

أين أخبار المجاعات والحروب ؟ أين أخبار القتل والإرهاب ؟

قال خالد: لقد حلّ الأنس والطمأنينة حتى في أجهزة الإعلام عندنا.

قال نور: وكيف تَّم هذا التحوّل الكبير ؟

قال خالد وهو يشير إلى لافتة على بناء ضخم في مركز مدينة الروابي كتبت عليها بخط جميل كلمة «إقرأ»: هذا هو الجواب.

نظر نور إلى ذلك البناء فوجده غاصّاً بالكتب.

قال خالد: هذه أكبر مكتبة في المدينة ولدينا الكثير في كل حيّ من أحيائها وكل بيت من بيوتها

الناس كلهم مشغولون بالقراءة والبحث

لقد تغيّر مفهوم الأمية لدينا

الأمّي في مصطلحنا ليس الذي لا يقرأ ولا يكتب

الأمّي هو الذي لا يعرف كيف يرتقي بحياته وحياة الآخرين نحو الافضل.

الأمّي هو الذي لا يعرف كيف يسمو بنفسه ومجتمعه نحو الكمال الروحي والمادي.

قال نور: ما أحسن ما تقول والله ، وهل الجميع يمارسون قولك هذا ؟

قال خالد: نعم ، لقد حولنا محطات البوليس والسجون إلى دور علم وجامعات ومدارس.

فانتفض نور كالمذعور من على كرسيّ السيارة وأدار وجهه نحو خالد وقال:

لقد وجدت مفقودي الثاني إنه الشرطة ، لا يوجد عندكم أي شرطيّ ولا جندي أليس كذلك ؟. ما أكثر هؤلاء في بلدي!. ماذا أقول لك ؟! لقد كانت الشرطة رمزاً لحماية الأبرياء في طفولتي وما أن كبرت وخبرت الحياة حتى أدركت أنها رمز لحماية ما يحلو لها أن تحميه.

قال خالد: هوّن عليك يا أخي ، ما قلته صحيح ، نحن لا نحتاج لشرطة ولا جنود في مدينة الروابي ولم ندرك هذه المرحلة إلا بعد جهد وكدّ.

ومرت برهة من الصمت عاد بعدها نور يتابع النظر في فيافي المدينة الحلوة لم يستطع في هذه المرة أن يخفي إعجابه الشديد بما رأى ، فقال لخالد وهو ينظر إلى الطرقات الواسعة والحدائق الغنّاء والأبنية الشامخة: ما أجمل مدينتكم ، ليس بوسع أي خصم أن يعثر على عيب فيها.

قال خالد: أشكرك على مشاعرك الطيبة تجاه مدينتنا.

صمت نور قليلاً وقال في نفسه:

هل هذه المدينة هي فعلاً كما أرى ، أم بسبب أنني حديث عهد بخروج من السجن جعلني أجد الكمال في كل شيء أراه ؟.

وفجأة قطع خالد تيار تفكيره قائلاً له وهو يوقف محرّك السيارة أمام حديقة غنّاء:

هيّا لنشرب كوباً من الشاي في هذا المتنزّه.

فاستجاب نور له ونزل الاثنان من السيارة وشرعا بالسير في الهواء المنعش والجو الدافئ.

وبدون أي مقدمات توقف نور عن السير.

نظر خالد إليه باستغراب وقال له:

هيّا نتابع المشي يا نور!!

غير أن نور لم يجب لقد تعلقت أنظاره ببناء ضخم يعلوه موشور في ذروته كفة ميزان واحدة ، يحمل الموشور الكبير مجموعة تماثيل أطفال مختلفي الأزياء والأجناس وتحت أقدامهم لوحة كبيرة نُقِشَ عليها بخط بديع عبارة «محكمة العدل» .

فانفرجت أسارير نور وركض كالملهوف يعدو في الممر الموصل إليها

فتبعه خالد مناديا : ماذا تريد يا نور ...! ؟ تمهل قليلاً .

قال نور : لا أستطيع لقد وجدت مفقودي الأول كنت أبحث عنه منذ خمسة عشر عاماً ولا زلت .

وعاد يتابع العدْوَ كتائه في بحر لَجي يعلوه ظلل من فوقها ظُلل ، تراءت له منارة بثّت فيه أمل الوصول إلى شاطئ الأمن والسلام .

قال خالد : ولكن يا نور أريد أن أساعدك .

قال نور : بصراحة أريد أن أرفع قضيتي إلى محكمة العدل هنا .

قال خالد : الأمر صعب جداً .

قال نور : لا تقلها مرة أخرى ، لماذا تريد أن تبث في روعي التقاعس ، وأن تضعف همتي ؟!

قال خالد وهو يلهث وراءه من الركض : لم أقصد ذلك أيها الصديق العزيز .

قال نور : هل تقصد أن تتابع التسلية في وقت أنا في أمسّ الحاجة فيه إلى الجد ، أتستهزئ بي يا خالد ؟

قال خالد : توقف قليلاً ، دعني أشرح لك ما أريد .

قال نور : إنني بحاجة إلى رفع أمري لمن يستطيع ، وأرى تباشير الخير تشرق من مدينة الروابي ، ألا تعلم أني مظلوم ، ألا تعلم أنني بحاجة لمن يعدل في قضيتي ! ؟ لماذا لا تساعدني ؟ ؟

قال خالد : لم أقصد أن أثنيك عن عملك يا أخي ، ولكن كما رأيت لا يوجد أي ضابط أمن هنا.

قال نور : نعم ، هذا صحيح.

قال خالد : وكذلك لا نحتاج لأي محكمة عدل في مدينة الروابي.

فَشُدِه نور بقولته هذه وتوقف عن الجري ، ولكن أنفاسه المتلاحقة السريعة لم تتوقف عن اللهاث بل حتى لم تبطئ ، فقال وهو يحاول تهدئة أنفاسه :

وماذا يعني هذا البناءالضخم ؟

قال خالد : إنه من مخلفات الماضي وآثاره.

قال نور : إي ماضٍ وأية آثار هذه ؟

قال خالد : إنه جزء من متحف تاريخ تطور البشرية ، إنه متحف طفولة الإنسان !.